

الشخصانية الإسلامية عند محمد العزيز الحبابي
**Personality Islam according to Muhammad Al-Aziz
Al Habbabi**

♦ د. رحموني ميلود

قسم الفلسفة، جامعة وهران 01 (الجزائر)
rahmounimiloud5@gmail.com

تاريخ الاستقبال: 2025/08/30 تاريخ القبول: 2026/03/05 تاريخ النشر: 2026/03/30
--

ملخص:

لقد تأثر فلاسفة العرب المعاصرين بعدة مذاهب فلسفية غربية، ويظهر هذا التأثير في محاولة هؤلاء لنقل العديد من تلك المذاهب الفلسفية وتطبيق مضامينها ومناهجها على الفكر العربي الإسلامي، هذا الفعل يتطلب عملية التبيين لها، هذا الفعل قد يكون مستنكرا من بعض المتشددین الرافضين للمفاهيم والمذاهب الفلسفية الغربية. ومن بين هذه المذاهب التي حظيت باهتمام العرب الفلسفة الشخصية، هذه الفلسفة تسمى بفلسفة التحرر حاولت تجاوز أزمة القلق التي سببتها الفلسفة الغربية الحديثة للإنسان، وهي فلسفة تسعى إلى إعادة الاعتبار للإنسان والاهتمام به. الكلمات المفتاحية:

الكائن؛ التحرر؛ الشخص؛ الحب؛ الجماعة.

Abstract: contemporary Arab philosophers have been influenced by several Western philosophical doctrines, and this influence appears in their attempt to transfer many of those philosophical doctrines and apply their contents and methods to Arab Islamic thought. . Among these sects that received the attention of the Arabs is the personalist philosophy.

♦ د. رحموني ميلود.

This philosophy is called the philosophy of liberation. It tried to overcome the anxiety crisis caused by the modern Western philosophy of man.

Keywords: object; liberation; person; love; group.

مقدمة:

هناك العديد من الفلاسفة والمفكرين الذين يعتمدون أسلوب تطوير وإنضاج المفاهيم ، فتكون البداية عندهم عبارة عن تسويق وطرح لفكرة معينة تخضع بنيتها إلى وجود لبنة ومنطلق معين تتحكم فيه قناعات المفكر وتكوينه الفكري وينميه بالمنهج الذي يراه مناسباً ويخدم الفكرة وتوجه الذي يقول به، ونلاحظ هذا الأمر عند الكثير من المفكرين العرب أمثال محمد أركون والجابري وغيرهم من المعاصرين ، فلا يخفى على أي دارس في الفلسفة أن المنطلقات الأولى عند أركون كانت تصدر في شكل قراءات تحليلية للمنظومة الفكرية العربية الإسلامية ، وبعدها اتجه إلى نقد ما سماه الإسلاميات الكلاسيكية ليبلور بعدها مفهوماً جديداً دعاه بالإسلاميات التطبيقية ، وهو الأمر أو المسلك نفسه الذي تحكم في فلسفة الجابري وغيره.

وفي سياق الحديث على فعل التطوير والإنضاج للأفكار ، نضع بين أيدينا نموذجاً فكرياً يعتبر هو الآخر بمثابة النموذج الذي خضع في كل مراحله إلى هذا الفعل ، ونخص بالذكر هنا ، تجربة محمد العزيز الجابري ، المفكر المغربي، حيث نجد أن هذا المفكر اعتنق المذهب الشخصانية ونظر إلى هذه الفلسفة نظرة جدية، لأنها في نظره فلسفة مغايرة ومختلفة عن الفلسفات الأخرى من حيث الأفكار التي دعت إليها ، وهي مضامين نبيلة في نظره، من جهة، ومن الجهة الأخرى بحكم قيمية المبادئ التي قامت عليها ورافعت من أجلها.

إن محمد العزيز الجابري يعتبر من المفكرين القلائل والأوائل الذين اهتموا بهذه الفلسفة ، واهتمامه بها أمر كرسه في الواقع من خلال الأفكار التي نمت في كتاباته من المرحلة الجنينية للإيمان بهذه الفلسفة إلى المرحلة التي أبدع فيها مفهوم الشخصانية الواقعية، ثم اتجه بعدها إلى إحداث مفهوم جديد، وهو الشخصانية الإسلامية، ومن خلال هاتين المرحلتين نما مفهوم آخر في منظومته

الشخصانية الإسلامية عند محمد العزيز الحبابي

الفكرية، ويتعلق الأمر بمفهوم الغدّية ، ومنه نلاحظ بشكل واضح أن الحبابي عبر هذه المراحل الثلاث التي مر بها فكره ، نلاحظ وجود فعل التطوير والإنضاج ، وهو الفعل الذي يتجلى من خلال تطوير الشخصانية الواقعية إلى الشخصانية الإسلامية ومن ثم جاءت مرحلة إنضاج هذين المفهومين إلى ما يسمى بخطاب الغدّية.

إن المراحل التي مر بها فكر الحبابي لا يمكن القول عنها أنها مراحل منفصلة عن بعضها البعض ، بمعنى أن لحظة الشخصانية الواقعية لا تنفصل عل اللحظات الأخرى ، بل إن هذه اللحظات في فكر الحبابي تجسد في حقيقتها وجود رابط وثابت تحكم في فكر الحبابي عبر كل مراحلها ، ومنه نحاول في هذه الورقة البحثية أن نتعرف أولاً عن المضامين التي تكرسها كل لحظة في كتابات الحبابي ، وثانياً نريد أن نعرف ونحلل هذا الثابت الذي جعل من كتابات الحبابي تصب في معين واحد مترابط ، وهو الأمر الذي يحتم علينا إثارة الإشكالية التالية : هل المضامين الفكرية التي أوجدها الحبابي عبر مراحل فكره تعد فعلاً واحدة في توجهاتها وتفضي إلى حل مشكلة النهضة ؟ وما هو الثابت الذي تحكم في المسار الفكري عند الحبابي ؟.

1- الشخصانية الواقعية:

1.1- البدايات:

لقد جاءت كتابات الحبابي في ظرف خاص يعرفه العام والخاص ، الفترة التي تلت استقلال الدول العربية بعد مرحلة إستدمار طويلة فعلت ما فعلت بهذه الشعوب ، حيث كانت سبباً مباشراً وفاعلاً في تدمير هذه المجتمعات على جميع الأصعدة ، لذلك انبرى بعض المفكرين لتغيير هذا الواقع من خلال محاولاتهم الفكرية لإحداث النهضة ، ويعتبر الحبابي في هذا السياق من هؤلاء المفكرين الذين ساهموا بقسط معين في إنتاج الأفكار، حيث يعتبر محمد وقيدى أن كتابات الحبابي تعتبر بمثابة الاستئناف للتفكير في المغرب ، حيث يقول في هذا الصدد : " تجد كلمة استئناف معناها عندنا لأن محمد العزيز الحبابي، وهو

ينطلق في مجال الكتابة الفلسفية ، لم يكن وهو أول مغربي يفعل ذلك في الزمن المعاصر، غريباً في هذا المجال ، فقد كان وراءه تراث غزير مثلته أسماء كان لهذا الفيلسوف اهتمام وحوار معها وتفكير بفضلها " (محمد وقيدي ، 1999 ، ص 145).

ويعتبر كتاب الحبابي " من الكائن إلى الشخص " بمثابة الكتاب الذي عبر فيه عن اعتناقه للفلسفة الشخصية من جهة ، ومن الجهة الأخرى هو الكتاب الذي تمخض من خلاله المفهوم الأول ونقصد به الشخصية الواقعية، واختياره لهذا المذهب يدل على أن هذا المفكر قد فتح حواراً مع الفكر الغربي ، لأن مذهب الشخصية نشأ في فرنسا مع الفيلسوف رونوفي وموني ، وتوجه الحبابي إلى هذا المذهب له دوافع وأسباب بطبيعة الحال ، حيث يقول عنها وقيدي : " إن الذي اختار أن يسير في طريق الشخصية انطلق من كونه مفكراً مغربياً مسلماً ، ينتهي إلى العالم الذي خضع للاستعمار وكان إلى ذلك الوقت ما يزال يعاني من عواقبه ، فانطلاق محمد العزيز الحبابي من الشخصية كان لأنه وجد في هذا المذهب مبادئ لا تتناقض مع انتمائه من جهة ، وتمكنه من محاورة الفكر الأوروبي وطرح بعض قضايا الفلسفة من الجهة الأخرى " (وقيدي ، 1999 ، ص 146).

إنَّ التوجه الفلسفي لهذا المفكر لم يكن مجرد اعتناق لهذا المذهب كما هو ، ذلك أنَّ الباحث سعى إلى التجديد من خلال جعل مضامين هذه الفلسفة تلامس الواقع الإنساني العربي الإسلامي ، ملامسة ستجعل هذه الفلسفة تقف على تحليل الواقع الذي ينتمي إليه الحبابي ، حيث يقول أحد الباحثين في هذا السياق : " فمع أن الشخصية الواقعية " رددت " أحياناً أفكاراً جاهزة " لموني " ، فإن ذلك لا يعني أنه ينقلها حرفياً ويحافظ على دلالاتها الأصلية . إنه لا يخطر في أفق صاحبها الأول ، لأن الجو الذي " ردها " فيه كان مغايراً للجو الذي نشأت فيه " (يفوت ، 1987 ، ص 24) ، وهنا مكمن التجديد الذي يسعى إلى إعادة بناء الواقع العربي المنكسر ، ويعتبر هذا الهدف المحدد لوجود هذا المذهب الفلسفي في

ثقافتنا يدل على محاولة لتجاوز هاجس الثالّثية الذي كان يخنق الحبابي ويحاصر أفكاره.

تظهر معالم تأثير هاجس الثالّثية في فكر الحبابي من خلال احوالة الواقع العربي الاسلامي إلى أسس التنطيق الشخصاني ، وترجم كتب هذا الباحث هذه الحقيقة التي يضمهرها تارة ويصرح بها تارة أخرى ، فنجد ذات الباحث حاضرة في كل أعماله الفكرية، لا تتغير قناعاتها وتغير من توجهاتها، فمعالم الفكر الشخصاني تتجلى في حديثه عن الحرية والتحرر وتظهر في حديثه عن المنغلق والمنفتح وفي الشخصانية الواقعية والشخصانية الاسلامية.

كما نجد بدايات تشكل هذا الخطاب عند الحبابي في كل اللحظات التي كان يفتح فيها حوارات مع التراث وأعلام هذا التراث ، ولقد ساهمت هذه المعطيات مجتمعة في دفعه إلى التفكير في مشروع فكري يعد بمثابة الثمرة التي اينعت عنده بفعل التأثير بهذه الفلسفة أولا وتجديدها ثانيا ثم تطويرها ثالثا ، والثمرة التي نتحدث عنها هنا هي اللحظة التي برز فيها خطاب "الغديّة".

2.1- تطور المفهوم في ثقافة الحبابي:

إن التأكيد على أهمية تحول مفهوم الشخصانية من الواقع الذي نشأت إلى الواقع الذي ينتهي إليه الحبابي تحكمه كما قلنا اعتبارات كثيرة أهمها تجاوز عامل التردد المسفي إلى التجديد المفضي إلى الاستفادة منها في قراءة الواقع العربي وتطويره ، هذا الأمر يساهم إلى حد ما في تجاوز هاجس الثالّثية على مستوى التفكير وعلى مستوى تفعيل هذا الفكر على الواقع المعاش والمتخلف ، وحظوة هذا المذهب وامتلاكه القدرة على الاستنهاض بالواقع يظهر من خلال اعتبار مذهب الشخصانية من بين المذاهب الأكثر انفتاحا على قضايا الانسانية مقارنة بتلك المذاهب التي ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية وافرازات الثورة العلمية في أوروبا وغيرها من أصقاع العالم على نحو خطير يهدد القيم الانسانية .

إن السياق التاريخي الذي ظهر فيه هذا المذهب خاصة فترة ما بعد الاستعمار التي عرفتها الشعوب العربية والاسلامية ، يبرز لنا الحاجة إلى هذه الفلسفات الداعية

إلى إعادة الاعتبار للوجود الانساني والاهتمام بالقضايا الجوهرية المتعلقة بكيفيات التشخص وإثبات الذات ، وعليه يكون ظهور الشخصانية الواقعية لدى الحبابي أهم معالم تطور هذا المذهب في الثقافة العربية الاسلامية على النحو الذي يجعل منا قادرين على الاستفادة منها ، وعليه تكون الشخصانية الواقعية فلسفة : " يقرأ فيها الحبابي همومه الثالثة ، ويرى فيها فلسفة تناسب مشاكله الخصوصية والتي هي مشاكل الشعوب المقهورة والتابعة . بل يذهب إلى حد " إثبات أن الشخصانية في صميمها ، فلسفة تحرر " (يفوت ، 1987 ، ص 26).

تظهر معالم إنضاج هذه الفلسفة وتطويرها من خلال فصلها عن خاصية الإغراق في المثاليات ودفعها إلى التجرد عن أشكال الفلسفات التي تمجد الذاتية والنرجسية الفكرية ، وهي فلسفة للتحرر في نظر الحبابي لأن الحرية من أهم الأسس التي تقوم عليها عملية التشخص وإثبات الذات ، ذلك أنها : " توتر تعبيرى ينبثق عن واقع الحياة ، حياة الانسان ، هذا الكائن الذي يعيش _ في _ التاريخ ، ويجعل من آناه تاريخاً ، يكون الإنسان من نفسه تاريخ تحرره ، بمساهماته في التاريخ . فالوجود الإنساني لا يكون وجوداً إلا في الحينونة " (الحبابي ، 1972 ، ص 11)، وينظر الحبابي إلى الحينونة على أنها تتابع الزمني للماض والحاضر والمستقبل .

تهتم الشخصانية الواقعية بالإنسان ومراحل تشخصه ، والتشخص في منظورها هو فعل يدل على التحول المستمر الذي يسعى من خلاله الإنسان إلى تحقيق ما يسمى بالشخصية النهائية ، وتحقيق هذه الشخصية يتطلب أولاً رفض ما يسمى بالأنثروبولوجيا الاستعمارية التي ترفع العقل الأوروبي وتقزم باقي العقول، ثم التفكير في الآليات والأدوات التي يتحقق بها تحول الإنسان من المعطى الخام إلى الشخص . عملية التحول هذه مرتبطة بجملة من الشروط والضوابط نذكرها على النحو التالي :

- قابلية الإنسان للتحول والانتقال .

- استثمار عنصر الوعي بحكم أنه خاصية تميز الانسان عن باقي المخلوقات.

الشخصانية الإسلامية عند محمد العزيز الحبابي

- إدراك أهمية الآخر لأنه شرط أساسي في عملية التشخيص أو التحول.
 - الإيمان باستمرار عملية التحول والانتقال .
 - استثمار القدرات النفسية .
 - الحرية إمارة التحول وضمان لنجاحه .
 - الالتزام بالأبعاد القيمية والأخلاقية للإنسان .
 - إن عملية التحول التي يخضع لها الشخص في سيرورته الوجودية ليست بعملية يحكمها العيب والارتجال ، ذلك أنها عملية تراعي وتطلب كل الشروط والضوابط المذكورة أعلاه ، ويجب أن نعي أن الإنسان كائن اجتماعي بطبعه لذا فهو مطالب بأن يتجاوز الأنانية والفردانية لأنها أحد أمراض الذات التي تعيق فعل التشخيص ، ومن المسببات التي تحيل الإنسان إلى مرض العزلة .
- 2- الشخصانية الإسلامية:

1.2- البحث عن مفهوم الإنسان في القرآن:

لقد كان الحبابي قد بدأ بالتأصيل لمذهب الشخصانية في الفكر العربي الاسلامي من خلال تجاوز التردد وإحداث التجديد على هذا المذهب وهو التجديد الذي تمخض عنه بروز مصطلح الشخصانية الواقعية بمضامينها وهواجسها ، ولم يكتف هذا المفكر بالوقوف بهذا المفهوم والمذهب عند هذا الحد ، بل راح يطوره من خلال السعي إلى تأسيس لشخصانية جديدة ، وهي الشخصانية الإسلامية ، وظهر هذا المفهوم لا يعتبر بمثابة الإلغاء للمفهوم السابق ، بل هو استمرار لتطوره وجعله أكثر ملائمة للواقع العربي الاسلامي ، وفي هذا الصدد يقول محمد وقيدي : " نؤكد أن المفاهيم الأساسية للشخصانية الواقعية لا تغيب مع الشخصانية الاسلامية ، كما نؤكد ان هذا الانتقال ليس غريباً عن محمد العزيز الحبابي لأن إرهاباته كانت موجودة منذ البداية " (وقيدي ، 1999 ، ص 160).

إن بروز الشخصانية الاسلامية عند هذا المفكر يدل دلالة واضحة على سعيه الدؤوب إلى البحث عن حضور المفاهيم الشخصانية في بنية الثقافة

العربية الاسلامية ، وكأن مسألة إثبات الذات الثالثة لابد لها أن تستشعرها وتُجلبها من كوامن التراث الثقافي العربي الاسلامي الذي لا يغيب فعل التشخصن المحاط بطبيعة الحال بالخصوصية العربية الاسلامية التي هي عصب الهوية لهذه الذات ، فعملية البحث عن الذات ينطلق من الماضي ليعبر الحاضر ويستشرف المستقبل ، وهو ما يُفهم من مصطلح الحينونة الذي ذكر سابقا في هذا المقال.

لقد أدرك الحبابي من خلال بحثه عن الشخصية في الثقافة العربية الاسلامية أنه بحث عن مفهوم الشخص والانسان في غمار هذه الثقافة ، ومن بين النتائج التي توصل إليها في هذا السياق الإقرار بأن مفهوم الشخص قبل الاسلام كان مغطى بما يميّه هو بالعمق القبلي ، وهذا العمق القبلي هو أحد أشكال النزوع إلى الأنانية القبليّة أو النخوة القبليّة ، هذا الاستتار وراء هذه الفردانية منعه من الاحساس بروح الأمة أو التفكير في تأسيس أمة ، ونحن نعرف طابع الصراع الذي كان سائدا بين القبائل العربية حيث كانت تقوم الحروب والصراعات لأنفه الأسباب ، هذه الصراعات كادت تقضي في لحظة معيّنة على الشخصية العربية كليا.

لقد تغيرت ملامح هذا الواقع بعد مجيء الاسلام ، ومن مظاهر التغير نقل شعور الانسان العربي بذاته من الشعور بروح الانتماء إلى القبيلة إلى الشعور بروح الانتماء إلى الأمة ونقصدها الأمة الاسلامية بطبيعة الحال ، فمن الأنانية الفردانية إلى الوحدة الاسلامية ، ومنه ظهرت الشخصية الاسلامية ، وفي هذه اللحظة استقال الانسان الجاهلي من تلك النمطية القاتلة بالانحياز إلى أسلوب جديد للعيش قائم على فلسفة الانتماء إلى الأمة ، فانتقل الولاء من الولاء إلى القبيلة إلى الولاء إلى للأمة ، بمعنى الولاء للإسلام وتجاوز حميّة الجاهلية ، وفي هذا السياق يقول محمد العزيز الحبابي : " دخل العربي أورشاً تاريخية جديدة ، على مستوى العالم . بذهنية وقيم وسلوك لم يكن له سابق معرفة به . هكذا تجاوز العربي فرديته وحدود القبيلة والجنس . فانتسابه للأمة أصبح مسؤولاً " (الحبابي ، 1973 ، ص 9) .

الشخصانية الإسلامية عند محمد العزيز الحبابي

إن النطق بالشهادتين يعتبر بمثابة تجاوز للفردانية والدخول في عقد شخصاني يسمح للإنسان بتكوين ماهية جديدة تقدم له كل أشكال الحماية ، كما تقدم له كلاً أشكال الشعور بالمعاني المتنوعة لكل ما هو إنساني ، لأن الإسلام يعترف للإنسان بكل الأبعاد التي تجعل منه كائناً قابلاً للامتداد ، بمعنى أنه قدم له صيغ جديدة للتفكير يكون بها الإنسان قادراً على تجاوز أنماط التفكير السلبية ، ويتيح له إدراك حقيقة الشعور القبلي على لأنه شعور يلغي معاني الأنسان التي من أجلها خلق.

إن النمط الجديد الذي خاطب به الإسلام الإنسان لابد أن يقوده إلى إدراك محدودية التفكير والشعور القبلي ، ويفتح أمامه المجال لتوسيع دائرة الشعور والتفكير ، وهذا ما يدعوه الحبابي بالبعد الامتدادي ، ومنه يكون الإسلام قد وسع دائرة شعور الإنسان المسلم ، وهنا يتجلى الطابع الشمولي للنظرة القرآنية لهذا الكائن ، لأن نمو وتطور الحياة النفسية والحياة العقلية مرتبط بهذا الطابع الشمولي ، وفي هذا الشأن تجدر الإشارة إلى أن الحبابي لا ينفي أهمية البعد القبلي الذي كان سائداً في الشخصانية الجاهلية بشكل كلي ولا ينظر إليه على أنه أمر سلبي في كل مناحيه ، لأن هذا المفكر ينظر إلى ذلك البعد القبلي على أنه ساهم بطريقة ما على تقوية مفهوم الصلة عند الانسان العربي حيث جاء القرآن وعمق أبعاد الصلة وأصل لهذه المسألة بشكي يحيل إلى أهميتها في حياة الإنسان الوجودية ، وهو ما نفهمه عند الحبابي عندما يقول : " لقد كان للبعد الامتدادي تأثيرات مباشرة على البعد العمقي . فكلما اتسع الأفق المجتمعي بمكتسبات جديدة ، نمّت الحياة النفسانية والحياة العقلية . لقد عزز التفكير القبلي تواجد المسلمين داخل وحدة متماسكة تنزع إلى التعالي " (الحبابي ، 1973 ، ص 10).

يستند تبرير حضور الشخصانية الإسلامية على هذا النحو عند الحبابي انطلاقاً من استثمار النصوص القرآنية في التدليل والتبرير على هذا الحضور ، ويرى في معالم الرسالة المحمدية من حيث هي رسالة عالمية على تقوي هذه الدلالات وتدافع عنها ، فهذه الرسالة تنب دكا أشكال التمييز والتحيز ، لأن الرسول

محمد لم تأتي رسالته لتخص جنسا معيناً بل كانت عالمية ، وهو ما تعنيه الآية 28 من سورة سبأ من قوله تعالى : ((وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا)) .

إن اعتراف الاسلام بالشخصانية على هذا النحو هو اعتراف مباشر بكل أشكال الكينونة التي يمكن للإنسان أن يجوزها ويقدم له الفرص لتفجير كوامن العظمة داخله ، بمعنى أن هذا الدين أعطى هويّة جديدة وحقيقية للإنسان ، وهو ما يعترف به العقاد عندما يقول عن عمر بن الخطاب : " عمر هو وليد البعثة المحمدية ، بها عُرف ، ودون سواها ما كان ليُعرف " (العقاد ، 2006 ، ص 06) ، إن تفجير كوامن العظمة النائمة داخل الإنسان تكون بفعل الإحساس بما يسميه الحبابي بالحياة الاسلامية ، وهي الحياة الحقيقية التي لا يمكن إدراكها إلا بالبحث الصادق عن الآليات التي تشكل الواقع الشخصي له ، وعلى الإنسان أن يسعى إلى تغيير هذا الواقع دوماً في حدود احترام الذوات التي تشاركنا هذا الواقع .

يحتضن الإنسان في دواخله قوة عظيمة تكمن في أنّه الكائن الوحيد القادر على الاندماج مع مكونات العالم الذي هو جزء منه ، هذا الاندماج يحيل إلى وجود خصائص أخرى لديه منها : الانسجام ، التفاهم ، الإلزام والشعور ، انطلاقاً من وجود هذه القوة فهو يمتلك القوة على الاختيار ، فإما أن يقبل أن يتشخص أو يرفض هذا الفعل ، هذه الخصائص في منظور الحبابي هي التي تعطي الاستقلال الذاتي والنوعي لهذا الكائن ، ويعرف لنا هذا المفكر الاستقلال الذاتي على أنّه : " هو ذلك الشيء الخاص بكل شخص ، نعني ولقع فرديته المخصصة له . فعندما نقول إن للأشخاص استقلالاً - ذاتياً أؤكد أن لا وجود لنموذج إنساني أو لقالب يفرغ فيه جميع الأشخاص ليكونوا على نمط واحد . إذ لكل شخص وجهته وتطلعاته الخاصة . وهي معين لا ينصب من العفوية والمبادهة " (الحبابي ، 1973 ، ص 11) .

إن القرآن يؤكد ويعترف بهذا الاستقلال الذاتي للشخص في مواضع كثيرة ، وهو ما تقصده الآية التالية في قوله تعالى ((وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّمُهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)) (سورة

الشخصانية الإسلامية عند محمد العزيز الحبابي

البقرة، الآية 148) ، وعليه يستقل كل شخص بمعطياته الطبيعية المقيدة بالأفعال ، هذه المعطيات الطبيعية تتيح للشخص على رفض كل أشكال الطاعة العمياء التي تكون للعباد أو المخلوقات الأخرى ، والرفض هنا يكون بمثابة الإعلان عن بداية وجود الشخصانية التي تبدأ بهذا الرفض وتنتهي إلى الاعتراف بالعقل والفكر معا وبقيمتهما بعيدا عن أشكال التطرف والتحيز .

تظهر معالم الاستقلال الذاتي من خلال الإقرار بأن كل شخص من الأشخاص هو من خلق الله وصنعه لكنه فريد : " فمثل العالم الإنساني كمثل كتاب عظيم ، غير متناه . تتجاذب أوراقه وتتكامل ، برعم اختلافها واستقلالها وترابطها في هذا الاستقلال . فنحن ، هنا ، بعيدون كل البعد عن ذهنية البدوية العربية التي سادت العصر الجاهلي والتي لا تتصور الكائن الإنساني إلا داخل مجموعة شريعته العصبية القبلية " (الحبابي ، 1973 ، ص 12) ، هذه العصبية القبلية كانت تشكل عوائق تمنع تمتع الشخص بالاستقلال الذاتي بحكم أنه شخص خاضع لتصورات الجماعة فهو بهذا كائن ذابت ملامح تشخصه داخل رابطة القبيلة ، وعليه لا يمكن اعتباره كائن فريد ونوعي .

2.2- الإنسان والوجود:

هناك فرق بين الوجود الإنساني والوجود الحيواني والشيئي ، وهذه مسألة لا تختلف حولها المذاهب الفلسفية كالوجودية والشخصانية ، لكن الشخصانية الإسلامية تنظر إلى الوجود الإنساني من زاوية أنه وجود فيه نوع من القداسة ، وتتجلى القداسة في الوجود الإنساني من حيث هو وجود يصاحبه الوعي الذي ينعدم عند الموجودات الأخرى ، فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يمتلك البصيرة ، الخاصية التي تمكنه من الشعور والاحساس وتعقل الأشياء ، حيث يجعل من وجوده وذاته موضوعات يفكر فيها دوماً وي طرح حولها عديد التساؤلات ، والتفكير في الذات والوجود يساهم في تأسيس فهم نوعي للوجود ، فالأحكام التي يصدرها الإنسان تعبر عن ملمح جوهري في التميز والتفرد ، لأن الكائنات الأخرى بعيدة كل البعد عن تحقيق هذا الملمح .

إن منح الإنسان هذه الخصائص الوجودية يعتبر بمثابة التكريم الإلهي الذي خصه به دون سواه من المخلوقات ، وهذا الأمر هو اعتراف بالشخصانية للإنسان منذ أم أمر الله الملائكة بالسجود لأدم ، واستمرت العناية الإلهية للإنسان من خلال البعثات النبوية التي كانت تسعى إلى جعل الإنسان يدرك حقيقته ويتجاوز أعماقه بالرفع من مستويات الإدراك لديه لتجاوز الأبعاد الحيوانية فيه، وتجاوز هذه الأبعاد يدل على تعزيز الوجود الإنساني ، وفي هذا السياق يقول الحبابي : " مجد المسلم ، في أساس كل تجاربه ، "الأنا" يتعرف بنفسه على ذاته ، بوصفه كرامة صادرة عن الله ، ويحيا وجوده بالتقاء مباشر مع ذاته ، ويكون معرفة عنها . في الذات يتركز الوعي بالذات ، إذ هي الكينونة الصميمة للفكر وهو يمارس العبادات والمعاملات " (الحبابي ، 1973 ، ص 25) .

إن المفاهيم التي بلورها الإسلام حول الشخص أو قل الإنسان يعتبر بمثابة التأسيس للشخصانية الإسلامية ، حيث تجعل هذه المفاهيم الإنسان قادرا على تجاوز كل أشكال الشعور السلبية بالوجود دافعة إياه إلى تغييرها واتباع المعايير المناسبة لتجاوز أشكال الذات السلبية ، وهذه المفاهيم تعتبر بمثابة ثورة كبيرة جدا على كل التصورات والأفكار التي لم تنتبه إلى حقيقة الوجود الإنساني أو تكون قد نظرت إليه من زوايا ضيقة تحكمها أفكار لا تؤسس للمعنى السليم للإنسان .

لقد ارتبط شرف الإنسان في الشخصانية الإسلامية بما يقوم به من أفعال على المستوى الفردي ، وهي الأفعال الحسنة بطبيعة الحال ، حيث يكون القيام بهذه الأفعال هو ما يؤسس للانتماء الحقيقي بالنسبة إلى الإنسان المسلم جاعلا إياه يتجاوز أشكال الانتماء إلى القبيلة ، الحيز الضيق الذي يمنع تماهي الإنسان ، حيث يكون النطق بالشهادتين إعلان عن تجاوز النمطية القبلية وتجسيدها للدخول في عهد جديد يسمح للإنسان باكتساب وعي جديد وتشريف جديد .

الشخصانية الإسلامية عند محمد العزيز الحبابي

إن الولوج إلى عهد العالمية والشخصانية الإسلامية مرتبط بالنطق بالشهادتين ، لأنه الطريق الوحيد للاعتراف بوحدانية الله ، وهذا الفعل لا يكون على المستوى اللفظي فقط ، بل يجب أن يكون مقرونا بالأفعال كالعبادات والمعاملات ، ذلك أن : " أي فعل من أفعالنا لا يكتسب صلاحيته الدينية إلا بخلوص النية ، فالنية هي القاعدة الأساسية في الإسلام . تمتاز النية باندفاع القلب الاعتناق الواعي لا بالعادة والتقليد الأعى " (الحبابي ، 1973 ، ص 27) .

إن فعل النطق بالشهادتين هو فعل فردي يدخل بها الإنسان المسلم عقد الجماعة المسلمة ، وهو بهذا يصبح أنا مشارك لأنوات أخرى وجب علي احترامه والتشارك معها ، فالإسلام يعترف بالاستقلال الذاتي للإنسان ويحترمه لكنه يربطه بما يسمى بالاستقلال الترابطي، والحب أساس هذا الترابط ، فلا يتأسس الاستقلال الذاتي إلا انطلاقا من هذا الحب الذي تلتقي فيه جميع الذوات متواصلة فيما بينها .

يعتبر الحبابي أن الشهادة هي التي ترخص انتقال الكائن من كينونة إلى أخرى ، وهو ما نعيه في قوله : " بعد الشهادة أمام المطلق ، وبعد التأمل والبحث العقلي في الكون ، يلزم الانتقال إلى النتائج العملية : الإيمان الديني والمعتقدات العلمية " (الحبابي ، 1973 ، ص 41) ، لذا يجد الانسان المسلم نفسه ملزما بتغيير معطيات الحياة الخاصة به على مستويات متعددة ومتنوعة ، هذا التغيير هو الذي يسميه هذا المفكر بالفتح ، التفتح الذي تتيحه مختلف العلوم الشرعية والطبيعية له ، هذه العلوم هي علوم نائمة في القرآن ، وفي هذا السياق كأنا بالحبابي يدعوا المسلم إلى دراسة الظواهر الطبيعية انطلاقا من ما يقدمه النص القرآني من علامات ، ومنه يصل الانسان إلى إدراك دلائل قوة المطلق وقدرته الخلاقة .

يعتبر الإنسان المسلم في الشخصانية الإسلامية " كائن علمي " بحكم أن الخالق يحثه على البحث المستمر عن الحقائق وتفعيل آلية التفكير بشكل دائم ، والتفكير هنا لا يخرج معناه عن معنى التأمل في الحقائق الكونية ، ففي النصوص

القرآنية دعوة صريحة إلى هذا نلمسها من خلال حث الإنسان إلى التفكير في خلق الإبل ، الجبال ، السماء ، الأرض ، البحار والنفس البشرية . على هذا تكون الشخصية الإسلامية شخصية متميزة وتقدس فاعلية التفكير والتأمل من حيث هي المنهج الذي يصل من خلاله المتخصص المسلم إلى تحقيق ذاته ككائن علمي متصل بالمطلق خالق هذه الظواهر التي تصبح موضوعاً لتأملات هذا الكائن العلمي . وهنا يجب أن نفهم بأن الإسلام قد جعل من التفكير فريضة على المسلم لكن التفكير لوحده غير كاف لاستكمال الشخص إنسانيته ما لم يكن مقروناً بالعبادات ، وفصل التفكير عن العبادات يعتبر الحجابي أحد الأمراض التي قد تتعرض لها الشخصية الإسلامية .

إن تفادي هذه الأشكال من الأمراض التي قد تصيب الشخصية الإسلامية مرتبط بالإنسان المسلم الذي يكون ملزماً بأن : " يتجاوز ذاته رغبة في حياة روحية قوامها حب مزدوج : حب الله ، وحب الكائنات البشرية . هكذا يحصل تشخص كينونتنا ، عن طريق الإعلاء ، ويجعلنا نندمج في " الكل " الذي يتجسد في الحياة الروحية ، محبة خالصة لذات الله تعالى ، ومحبة طبيعية لمخلوقاته ، على أن الحبين يكونان حباً واحداً ، مادام حب الله يبدأ بحب الكائنات " (الحجابي ، 1973 ، ص 41) .

تركز الشخصية الإسلامية عند الحجابي على الشهادتين باعتبار أن النطق بها يجعل الشخص يعي أنه موجود وشاهد في الآن نفسه ، يعي نفسه بأنه موجود لأنه شخص معترف بوحداية الله ، هذا الاعتراف يدخله في غمار العلاقات الاجتماعية مع الآخرين ، وشاهد لأنه وبساطة يشهد على نفسه بأنه موجود وله استقلاله الذاتي الذي بموجبه يخوض تجربته الشخصية الخاصة به ، يتضح من خلال هذا الأهمية التي تكتسبها الشهادتين في هذه الفلسفة ، حيث يعتبرها الحجابي النواة الأصلية والأصيلة للشخصية الإسلامية ، هذه الشهادتين هي التي تعطي كل أشكال الحيوية التي تجعل من الإنسان الكائن الوحيد القادر على الشعور وتعقل الأشياء ومنها إصدار الأحكام .

الشخصانية الإسلامية عند محمد العزيز الحبابي

إن الإنسان المسلم شخص مسؤول لأنه مسلم ، بمعنى أنه مسؤول تمام المسؤولية عن شخصيته ونفسه ، ذلك أن : " الشخص ، حسب هذا السياق ، وحدة مفردة مستقلة الذات ، واعية لأفعالها وما يترتب عن هاته الأفعال من نتائج : تلك هي المسؤولية . وليس معنى هذا أنه يجب على كل واحد يعتني بذاته ويلتزم بأفعاله فحسب ، بل يجب عليه أيضاً أن يتحمل مسؤولية العالم المحيط به ، ويحميه ، كما يفعل الراعي مع غنمه " (الحبابي ، 1973 ، ص 47) .

الخاتمة:

إن أي باحث يتفحص الأفكار التي بلورها محمد العزيز الحبابي في سياق تأثره بالمذهب الشخصاني لا بد يلاحظ أن المسار الفكري لهذا المفكر تتحكم فيه ثلاث لحظات مهمة في تطور أفكاره ، اللحظة الأولى تكمن في التلاقي الإيجابي أو التصادم الفينومينولوجي مع الفلسفة الشخصانية التي ظهرت في فرنسا ، حيث تأثر الحبابي بهذه الفلسفة وحاول أن يقرأ بها الواقع العربي الاسلامي ، وتعتبر هذه المرحلة بمثابة اللحظة الثانية التي تبلور عنها ظهور الشخصانية الواقعية ، ثم انتقل الحبابي إلى مرحلة أخرى تجسد اللحظة الثالثة التي راح فيها يبحث عن مفهوم الشخص في القرآن والإسلام ، وهو ما تجسد في ظهور الشخصانية الإسلامية ، هذه الشخصانية تعتبر بمثابة التركيز على اهتمام القرآن بالإنسان ، وهذه الفلسفة تهتم وتركز على أهمية النطق بالشهادتين ، حيث يعتبر هذا الفعل بمثابة الدخول في عقد الشخصانية الإسلامية التي تمجد الاستقلال الذاتي للإنسان وتوفر له شروط التماهي الوجودي بشكل إيجابي .

الهوامش والمراجع:

- الحبابي، محمد العزيز ، 1973 ، الشخصانية الإسلامية ، مصر ، دار المعارف .
- الحبابي ، محمد العزيز ، 1972 ، من الحريات إلى التحرر ، مصر ، دار المعارف .
- وقيدي ، محمد ، 1999 ، جراءة الموقف الفلسفي ، المغرب ، أفريقيا الشرق .
- يافوت ، سالم ، 1987 ، دراسات مغربية ، المغرب ، المركز الثقافي العربي .
- العقاد ، عباس محمود ، 2006 ، عبقرية عمر ، مصر ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع